+ آباؤنا القدّيسون

دخول السيدة إلى الهيكل

«اليوم الهيكل المتنفس، هيكل الملك العظيم تدخل إلى الهيكل، لنهيَّأ مسكناً إلهياً، فيا أيها الشعوب ابتهجوا» (صلاة سحر العيد).

لقد طبعت الأعياد الدينية حياتنا لألوف السنين، ويبدو أننا نخسر هذا الأمر مع مرور الزمن. رغم أن الكثيرين يذهبون إلى الكنائس أيام الأعياد، إلا أن معظمهم لم يعد يعرف فحوى كل عيد واحتفال. قد تكون الأعياد لكثيرين مناسبة لنيل قسطٍ وافر من الراحة والنوم والأكل والشرب، ولكنها لا بد أن يشعر المرء، ولو في أعماق ضميره ووعيه، إن شيئاً يفوق الوصف مشعاً يدخل حياته مع كل عيد، يدخله في حوار مع عالم مختلف الحقائق، ومذكراً بأمر منسي أغرقته رتابة أيام الحياة والفراغ والسأم.

تأمل في أسماء الأعياد: الدخول إلى الهيكل، الميلاد، الظهور الإلهي، التجلّي. وحدها هذه الكلمات بجلالها وعدم ارتباطها بالحياة اليومية وبجمالها السري توقظ فيك ذاكرة منسية وتستدعي أمر ما وتشير إليه. لقد كانت الأعياد نوع من تلهُّف إلى جمال مفقود ولكنه مُغري، تلهف إلى نوع آخر من العيش.

لقد أصبح عالمنا رتيباً وبدون أعياد. حتى أن أعيادنا الزمنية غير قادرة على إخفاء رماد الحزن وعدم الرجاء، إذ ان جوهر الاحتفال هو خبرة الدخول في حقيقة مختلفة، في عالم جمال ونور روحانيين. إذا لم تنوجد هذه الحقائق، فلن يكون شيء للاحتفال به، ولن تستطيع أي محاولة مصطنعة لرفعه (للإعلاء من شأنه) في خلق العيد.

لدينا عيد دخول والدة الإله إلى الهيكل، وفحواه بسيط جداً: طفلة صغيرة (٣ سنوات) يجلبها أهلها إلى هيكل أورشليم. ليس هناك شيئاً مميزاً في هذا، لأنه، في تلك الأيام، كانت عادة مقبولة أن يجلب الأهل أولادهم إلى الهيكل علامة لوضعهم في اتصال مع الله، لإعطاء حياتهم المعنى الأسمى والهدف الأسمى، لإنارة حياتهم من الداخل بالنور الأعلى.

+ آباؤنا القدّيسون

في هذه المناسبة، وكما نرتل في الخدمة الليتورجية، يقود يواكيم وحنة الطفلة إلى «قدس الأقداس»، إلى المكان الذي لا يسمح الدخول إليه إلا للكهنة فقط، القسم الاسراري الداخلي للهيكل. اسم الطفلة مريم وسوف تكون في المستقبل أم يسوع المسيح، الذي عبره، كما يؤمن المسيحيون، أتى الله إلى العالم ليكون مع الجنس البشري ويشاركه حياته ويكشف الفحوى الإلهي الذي للجنس البشري.

لدينا هنا هيكل ضخم رائع مهيب، مجد أورشليم. ولقرون طويلة كان هذا الهيكل، وراء تلك الحيطان السميكة، هو المكان الذي يأتي إليه الإنسان ليلاقي الله ويتصل به. الآن الكاهن يقود مريم بيدها إلى قدس مكان في الهيكل، ونحن نرنم «إن الهيكل الكلّي النقاوة هيكل المخلص البتول الخدر الجزيل الثمن... اليوم تُدخل إلى بيت الرب...» (قنداق العيد). لاحقاً في الأناجيل يقول يسوع: «انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه» ويضيف الإنجيلي: «وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده» (يوحنا ٢: ١٩و٢٠).

معنى هذه الكلمات والأحداث بسيط: من الآن وصاعداً يصير الإنسان هيكلاً. لا هيكل حجري ولا مذبح، لكن الإنسان نفسه وروحه وحياته هو القلب العالم المقدس والإلهي، إنه «قدس الأقداس». أحد الهياكل مريم حية وبشرية تُقاد إلى هيكل مصنوع من حجر، ومن داخله تقوده إلى كمال معناه ورمزيته.

مع هذا الحدث صارت نقلة نوعية في الدين، وفي الحياة أكثر مما يدخل العالم الآن هو تعليم لا يضع شيئاً أعلى من الإنسان، لأن الله نفسه يأخذ شكلاً بشرياً ليُظهر دعوة الإنسان ومعناه الإلهي. من الآن وصاعداً الإنسان حر, لا شيء يقف فوقه، لأن العالم هو هبة من الله لتحقيق قدره الإلهي.

من اللحظة التي دخلت فيها مريم العذراء «قدس الأقداس»، صارت الحياة هيكلاً. وعندما نحتفل بدخولها إلى الهيكل، نحتفل بدخول الإنسان المعنى الإلهي وبريق دعوته الإلهية. لا يمكن تناسي هذا الأمر ومحوه من ذاكرة البشرية.

وعت الكنيسة أهمية مريم في مخطط الله لخلاص البشر، وفهمت أن دخولها إلى الهيكل هو بداية تجسد الخلاص. لهذا فقد رتب آباء الكنيسة أن نرتل في صلاة سحر العيد كاطافسيات الميلاد:

+ آباؤنا القدّيسون

«المسيح ولد فمجدوه، المسيح أتى من السموات فاستقبلوه... إنني أشاهد سراً عجيباً مستغرباً المغارة سماءً، والبتول عرشاً شاروبيمياً والمزود محلاً شريفاً الذي اتكأ فيه المسيح الإله...». وكأننا منذ الآن بدأنا بالدخول في سر تجسد ابن الله. إن الليتورجيا سلسلة مترابطة الحلقات، كل عيد يهيء الطريق لآخر، والآخر يهيء لعيد آخر.

لقد دخلنا منذ أسبوع في صوم الميلاد واليوم مع عيد دخول السيدة إلى الهيكل ندخل في صلوات الميلاد، فنتهيأ منذ الآن لاستقبال ملك الكل، ونجهز له مسكناً في قلوبنا، ونكون من أبناء الملكوت.

(الأب ألكسندر شيمان)